كتابك

٤٦

حسن فؤاد

المستوطنات اليهودية

فى الفكر الصهيونى

دار المعارف

اقرأ ٤٦

رئيس التحرير أنيس منصور

حسن فؤاد

المستوطنات اليهودية

فى الفكر الصهيونى

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

المستوطنات اليهودية

لها قصة عمرها ١٤٤ سنة

١٩٧٨

منذ ١٤٤ سنة – وعلى وجه التحديد فى عام ١٨٣٤ – ظهرت أول دعوة لإقامة مستوطنات يهودية فى فلسطين بالمفهوم الحالى لفكرة المستوطنات .

وصاحب الدعوة إلى إقامة هذه المستوطنات هو نفسه أول من دعا إلى الحركة الصهيونية بمعناها السياسى الحديث :

هذا الرجل لم يكن هيرتسل ولا بنسكر ولا أيا من فلاسفة الدعوة الصهيونية الذين تزخر بأسمائهم مئات الكتب – وربما الآلاف التى وضعت عن إسرائيل والصهيونية ؛ وإنما كان حاخاما مغمورا عاش طول حياته منبوذا من اليهود الذين اعتبروه « مخرفا » ، ومات منذ مائة عام بعد أن طواه النسيان ! ولم يبدأ اليهود فى إحياء كتاباته وإعادة تقويمها إلا فى عام ١٩٤٥ : أى قبل ثلاث سنوات فقط من قيام إسرائيل !

١٨٧٨

هذا الحاخام المغمور المنسى المنبوذ يعتبرونه الآن فى إسرائيل أول « نبى » للصهيونية !

اسمه : « يهودا الكالاى » ولد وعاش ومات بمدينة سيرايفو التى

أصبحت الآن عاصمة جمهورية الصرب إحدى جمهوريات يوجوسلافيا ، وقد جاء مولده فى أواخر القرن الثامن عشر عندما كانت بلاد الصرب جزءا من الإمبراطورية العثمانية ، وشهد فى شبابه حركة القومية النامية بين أبناء الصرب الذين كانوا ينادون بالسيادة السياسية والتخلص من الاستعمار العثمانى ؛ ومن ثم نشأت لديه فكرة « القومية اليهودية » :

إذا كانت هناك قومية صربية فما الذى يمنع أن تكون هناك قومية يهودية ؟ هكذا كان تصوره !

ومن الثابت أن الحاخام (الكالاى) رحل فى صباه إلى القدس حيث أمضى هناك عدة سنوات اختلط خلالها باليهود المتدينين الذين لم يكن لهم مطمح إلى الإقامة فى أرض فلسطين غير أن يتعبدوا حول الأماكن المقدسة اليهودية ، ثم يموتوا فوق الأرض المقدسة ويدفنوا فى ترابها !

وفى عام ١٨٢٥ عاد إلى الصرب لكى يتولى منصب حاخام عاصمتها «سملين» التى لا تبعد كثيرا عن حدود اليونان ، ورأى كيف انتصر اليونانيون فى حربهم القومية من أجل الاستقلال ؟ فنمى إلى ذهنه أن القومية اليهودية لن تتحقق أيضا إلا عن طريق الحرب !

* * *

أما قبل ظهور هذا الحاخام فقد ظل اليهود طوال نحو ألفى سنة (منذ السبى الرومانى فى عام ٧٠ ميلادية) يتجهون فى صلواتهم إلى القدس ،

ويحلمون بالعودة إليها مؤمنين بأن هذه العودة ستحقق بمعجزة إلهية عن طريق « مسيح جديد » يظهر فى « آخر الأيام » ويقودهم إلى وطن الأجداد لكى يعيشوا هناك فى سلام تام « حيث يتجاور الذئب والحمل ! وحيث تفيض الأرض لبنا وعسلا ! »

فالأمر إذن لم يكن يخرج عن نطاق الصلوات والأحلام ؛ كما أن صورة العودة كانت تتخذ شكل معجزة من السماء لا يد فيها للبشر ! .

واليهود يرون أنهم أول من دعا إلى التوحيد (ابتداء من سيدنا إبراهيم عليه السلام) . وبناء على ذلك فهم يؤمنون بأن هناك حكمة إلهية من تشتيتهم فى الأرض : وهى أن ربهم أراد لهم أن يكونوا بمثابة « المصابيح » أو « الفنارات » التى تهدى سائر البشر ! ولا ينبغى أن تتخذ هذه « الهداية » شكل التبشير بالديانة اليهودية أو دعوة غير اليهود « الجوييم » إلى اعتناقها ؛ لأن اليهودية دين خاص بنسل سيدنا يعقوب أو إسرائيل ، ولأن اليهود يجب أن يظلوا محصورين فى نطاق الاثنتى عشرة قبيلة التى أنجبها الأبناء الاثنا عشر لسيدنا يعقوب ، هكذا يقولون ! .

فالديانة اليهودية فى أساسها ترى أن « الرب » هو الذى أراد لليهود أن يتشتتوا فى الأرض ؛ لكى يقوموا بمهمة دينية واجتماعية ، ومادام ربهم هو الذى أراد لهم القيام بهذه المهمة فإنه وحده الذى يملك إنهاء مهمتهم وإعادتهم إلى أرض « المعاد » ! وهو وحده الذى يختار توقيت هذه « العودة » وكيفيتها وإنه ليس عليهم أن يختاروا أو يلتمسوا هذه العودة —

بأية وسيلة – من تلقاء أنفسهم !

على هذا النحو ظل اليهود يؤمنون حتى ثلاثينيات القرن الماضى عندما ظهرت أول دعوة إلى « القومية اليهودية » أو « الصهيونية » نسبة إلى جبل صهيون بالقدس .

وكان أول داعية إلى الصهيونية – كما ذكرنا – هو الحاخام « يهودا الكالاى » فهو الذى أصدر « فتورى » بأنه يجب على اليهود أن يعملوا من أجل العودة ، وبأن هذا العمل من جانبهم لا يتعارض هو والمبدأ الدينى الذى يقرر أن « العودة » ستتحقق على يد مسيح جديد بإرادة إلهية ! وكانت وجهة نظره فى ذلك أنه يتعين على اليهود أن « يساعدوا أنفسهم » فى تحقيق المعجزة الإلهية لهم ، وأن هذه « المساعدة لأنفسهم » هى التمهيد لظهور المسيح الجديد ؛ ومن ثم فهى لا تمثل خروجا على إرادة ربهم !

وقد بدأ الحاخام (الكالاى) أولى كتاباته فى الدعوة إلى استيطان فلسطين فى عام ١٨٣٤ حيث أصدر كتيبا بعنوان « اسمعوا يا بنى إسرائيل ! » قال فيه :

إن التمهيد الضرورى للخلاص و« العودة » إنما هو إقامة مستوطنات يهودية على أرض فلسطين !

ولم يكد يظهر هذا الكتيب حتى اصطدم صاحبه واليهود المتدينون الذين يؤمنون بأن الخلاص لن يكون بيدهم ، وإنما بيد مسيح جديد ينفذ إرادة « الرب » .

ودخل الحاخام (الكالاى) فى مساجلات طويلة مع هؤلاء المتدينين، ولم يجد بأسا من الرجوع إلى أسطورة يهودية قديمة مجهولة الأصل تقول: إن أيام ظهور المسيح ستسبقها حروب يقود اليهود خلالها أحد أبناء سيدنا يوسف، وإن هذا الابن سيكون هو المسيح الأول، ومن بعده يأتى المسيح الحقيقى!

وساعده فى ذلك الوقت أن وقع حادث شهير فى عام ١٨٤٠ عندما وُجهت إلى اليهود فى دمشق تهمة قتل صبى مسيحى واستخدام دمه فى صنع الخبز غير المخمر الذى يتناولونه فى عيد الفصح! وأحدث هذا الاتهام صدى كبيرا بين اليهود فى أوربا، وعلى الإثر أخذ (الكالاى) يردد أن الوسيلة الفريدة لوقف مثل هذه الاتهامات ولضمان أمن اليهود وحريتهم هى «أن يعيشوا حياتهم الخاصة بهم فى أرض أجدادهم»!

وتعددت كتابات (الكالاى) التى حاول فيها أن يشرح برنامجا للخلاص، ووجه الكثير من هذه الكتابات إلى كبار الشخصيات اليهودية فى العالم الغربى من أمثال المليونير الإنجليزى موسى مونتفيورى والسياسى الفرنسى أدولف كرميو، لأنه كان يعلم أن تحقيق برامجه لا ينجح بدون أموال اليهود ونفوذهم السياسى!

وكانت برامج (الكالاى) تتضمن: شراء أراضى فلسطين من السلطان التركى، وإقامة «تجمع كبير» لجميع يهود العالم، وإنشاء صندوق قومى لشراء الأراضى، وصندوق آخر لجباية نسبة محددة من

دخل كل يهودى ، وطرح سندات للحصول على قرض قومى .

وقد ظهرت هذه الأفكار نفسها فى البرنامج الذى وضعه « تيودور هيرتسل » فيما بعد ، ونفذتها الحركة الصهيونية بالفعل فى مراحلها التالية .

بل إن « سيمون هيرتسل » جد « تيودور هيرتسل » أصبح واحدا من أتباع (الكالاى) والمعجبين القلائل به فى ذلك الوقت .

ومن بين معاصرى (الكالاى) حاخام آخر فى بولندا اسمه (زفى هيرش كاليسكر) — وكانت بولندا أيضا تمر بمرحلة صراع قومى عنيف فى سبيل استرداد قوميتها وسيادتها السياسية بعد تقسيمها للمرة الثانية فى عام ١٧٩٣ بين بروسيا وروسيا القيصرية ، وهذا أيضا ما أوحى إلى كاليسكر بفكرة « القومية اليهودية » !

كذلك فإن (كاليسكر) عاصر فى بداية حياته حركة الإصلاح الدينى التى مرت بها الديانة اليهودية والتى كانت تدعو إلى التخلى عن الكثير من المعتقدات والطقوس الموروثة .

وظهرت أول دعوة لكاليسكر إلى الصهيونية فى خطاب بعث به عام ١٨٣٦ إلى عميد فرع أسرة روتشيلد فى برلين ، حيث قال فيه :

« إن بداية الخلاص ستجىء عن طريق الجهد البشرى ، وإقناع حكومات العالم لتجميع شتات بنى إسرائيل فى الأرض المقدسة »

فهو هنا لا يكتفى بطلب « مساعدة اليهود لأنفسهم فى العودة » وإنما يطلب أيضا مساعدة حكومات الدول المختلفة .

ومن جهة أخرى فقد ساهم بجهد عملى فى إحدى الخطوات الأولى لمراحل الاستحواذ على أرض فلسطين ، وذلك عندما دفع منظمة « التحالف الإسرائيلى العالمى » (وهى المنظمة التى أنشئت فى فرنسا عام ١٨٦٠ للدفاع عن حقوق اليهود دوليا) إلى إقامة المدرسة الزراعية فى يافا عام ١٨٧٠ من أجل إعداد الأفواج الأولى من المهاجرين للعمل فى الزراعة ، ومن ثم للارتباط بالأرض !

والجدير بالذكر أن هذا العمل أثار عليه ثائرة اليهود المتدينين الذين كانوا قد استقروا فى أرض فلسطين من أجل العبادة ، فقالوا : إن الاشتغال بالزراعة سيصرف اليهود عن العبادة ، وسيؤدى إلى منازعات وصراعات بين الوافدين الجدد وأصحاب الأرض الأصليين ؛ مما لا يتفق مع الديانة اليهودية ورؤياها للخلاص والعودة !

وأهم كتاب أصدره (كاليسكر) هو « البحث عن صهيون » عام ١٨٦٢ ، وفيه يقول :

« عندما تتحقق العودة بوسائلنا الأرضية فإن أشعة الخلاص السماوية ستظهر بالتدريج ! » .

وفى العام نفسه صدر كتاب آخر بعنوان « روما والقدس » . ولم يكن المؤلف هذه المرة حاخام ، وإنما كان فيلسوفا اشتراكيا هو « موسى هيس » الذى عمل فترة مع « كارل ماركس » فى الصحيفة التى كان يصدرها فى ألمانيا واسمها « راينيشه تسايتونج » كما شارك « ماركس وإنجلز » فى إصدار

كتابين من كتب التحليل النقدى للأوضاع السائدة فى ألمانيا فى ذلك الوقت ، كذلك كان له دور كبير فى الثورة الألمانية عام ١٨٤٨ إلى حد أن صدر عليه حكم بالإعدام !

وبعد ذلك اختلف هو وماركس وإنجلز وعارض « المانفستو الشيوعى » عند إصداره ونادى « بالاشتراكية القومية » ثم استحوذت عليه فكرة القومية اليهودية ؟ ومن ثم تحول إلى الدعوة الصهيونية التى صاغ كل آرائه بشأنها فى كتاب « روما والقدس » ، وفيه يناقش قضايا الحرية والعدالة الاجتماعية والتقدمية ، ويحاول أن ينسبها إلى الفكر الصهيونى ! .

ويسترعى النظر هنا أن الدعوة الصهيونية الاستيطانية ظهرت أول ما ظهرت فى أوربا ، وأن أشد المعارضين لها كانوا يهود فلسطين واليهود المتدينين عموما ! .

كما يسترعى النظر أن توقيت ظهور الدعوة الصهيونية قد جاء خلال فترة نهوض القوميات عموما فى القارة الأوربية فى أواسط القرن التاسع عشر : ففى ذلك الوقت كانت تحتدم دعوات القومية فى ألمانيا وإيطاليا بالإضافة إلى البلدان الأخرى التى سبق ذكرها وهى الصرب واليونان وبولندا .

ولم يكن ذلك كله من قبيل المصادفة ؛ فإن فكرة « القومية اليهودية » التى كانت فى ذلك الوقت فكرة طارئة تماما على التاريخ اليهودى ، وليس لها أى مقومات قبل عصر نهوض القوميات الأوربية — هذه الفكرة

أرادت أن تركب الموجة العامة لنهوض القوميات فى أوربا !

غير أن الصهيونية أو «القومية اليهودية» كانت مختلفة تماما عن الدعوات القومية لتلك الفترة : فالقوميات التى ظهرت آنئذ كانت تقوم على أساس النضال فى سبيل السيادة السياسية على أرض قومية تقف عليها بالفعل والاستناد إلى لغة قومية تتداولها بالفعل ، أما الصهيونية – عند قيامها – فكانت بلا أرض ولا لغة متداولة ، ولأنها بلا أرض فقد سيطرت عليها منذ البداية فكرة «الاستيطان» أو «إقامة المستوطنات» .

فالدعوة الصهيونية لم تنبث من أرض فلسطين ، وإنما من شرقى أوربا ، وبرغم أنه كانت تعيش فى ذلك الوقت مجموعات من اليهود المتدينين فى فلسطين فإن هذه المجموعات لم تخطر لها قط فكرة القومية هذه ! بل إنها قاومتها بشدة ، كما قاومت الدعوة إلى إقامة «مستوطنات» يهودية فى فلسطين كما قدمنا !

ومن جهة أخرى فإن اللغة العبرية – التى سعت الصهيونية إلى اتخاذها لغة رسمية فى إسرائيل – لم تكن متداولة عند ظهور الصهيونية : بمعنى أنها لم تكن لغة حية ، وإنما كان يقتصر استخدامها على الصلوات اليهودية ، ولا يكاد يلم بها إلا كبار رجال الدين اليهود !

وعندما أراد بعض اليهود «فى المنفى» أن تكون لهم لغة خاصة بهم يتميزون بها من أهل البلد الذى يقيمون فيه – لم يختاروا اللغة العبرية ، وإنما استخدموا لغة «اليديش» فى ألمانيا ومعظم دول شرقى أوربا ، ولغة

«اللادينو» فى إسبانيا وبعض مناطق شمالى أفريقيا !

وبرغم أن هاتين اللغتين تكتبان بحروف عبرية ، وتستعينات ببعض الكلمات العبرية – فإنهما كانتا فى أساسهما من اللغات الأوربية :

فاليديش فى أساسها هى اللغة الألمانية ، واللادينو فى أساسها هى اللغة الإسبانية بل إنه حتى عند إعادة إحياء اللغة العبرية مع تقدم الدعوة الصهيونية احتاج الأمر إلى جهود خاصة (لتبسيط) هذه اللغة القديمة ، حتى يمكن تداولها كلغة عصرية ، لغة خاصة بالمستوطنات تكون أقرب إلى «اللغز» الذى لا يفهمه إلا أهالى المستوطنات !

وحتى الآن مازالت أحدث قواميس اللغة العبرية تعتمد على المعجمات التى وضعها اليهودى الروسى «اليعازر بن يهودا» فى أوائل القرن العشرين أكثر مما تعتمد على اللغة العبرية الأصلية التى أخذت فى الاندثار بعد كارثة استيلاء الرومان على القدس عام ٧٠ ميلادية ، وبدء تشتيت اليهود فى مختلف أرجاء المعمورة !

كتاب واحد و ٣٨ مؤلفا

قبل فترة وجيزة من حرب يونيو ١٩٦٧ ظهر فى الولايات المتحدة كتاب هام بعنوان (الفكرة الصهيونية) ربما لم يلتفت إليه أحد فى ذلك الوقت .

وفى تقديم هذا الكتاب يقول الدكتور « أمانيويل نيومان » رئيس مؤسسة « تيودور هيرتسل » الصهيونية الأمريكية : إن الحركة الصهيونية – وخصوصا بعد أن أثمرت قيام إسرائيل – فتحت المجال لمجموعة كبيرة من الكتابات . إلا أن معظمها تناول الموضوع من ناحية « عوامله الخارجية » مثل : اضطهاد اليهود فى أوروبا على أيدى النازية ، وعلاقة حركات الإرهاب الصهيونى بالانتداب البريطانى على فلسطين ، والصراع بين العرب وإسرائيل ! فى حين أنها أغفلت ناحية ربما كانت أهم من حيث دراسة طبيعة الحركة الصهيونية ، وهى : القوى الداخلية فى الحياة اليهودية التى انبعثت منها الدعوة الصهيونية وتطورت .

ولقد رأينا أن جذور الدعوة الصهيونية لم تنبت من الديانة اليهودية ؛ وإنما من كتابات الحاخامات الذين حرفوا المعنى الدينى الحقيقى لنبوءة خلاص اليهود من التيه والشتات ؛ ومن ثم فهى دعوة نابعة من حارات

اليهود وتفاعلاتها الداخلية المنعزلة عن المجتمعات البشرية الواسعة !

ومثلما لقيت هذه الدعوة – منذ بدايتها – معارضة من رجال الدين اليهودى المتمسكين بمبادئ الشريعة اليهودية – مازالت تلقى معارضة المفكرين الليبراليين بما فيهم عدد من كبار المفكرين اليهود الذين يمثلهم فى عصرنا الحالى « مكسيم رودنسون » والحاخام « المربيرجر » و « الفريد ليلنتال » وغيرهم .

ونعود إلى كتاب « الفكرة الصهيونية » الذى أشرنا إليه ، وهو كتاب فى ٦٣٨ صفحة ، وليس له مؤلف واحد ؛ وإنما ٣٨ من المؤلفين ، واحد منهم فقط هو الذى جمع مختارات من كتابات الـ ٣٧ الباقين ، ووضع من عنده مقدمة للكتاب فى ٨٦ صفحة ، يمكن اعتبارها كتابا قائما بذاته . وقبل المقدمة تأتى كلمة التقديم التى كتبها الدكتور « نيومان »

وقد استغرقت عملية التجميع هذه أربع سنوات ، حيث انتقى صاحب هذا التجميع ٣٧ من أبرز مفكرى الصهيونية ودعاتها على مدى أكثر من قرن من الزمان ، ثم انتقى لكل واحد منهم مقتطفات اعتبرها أهم ماكتبه صاحبها حول الفكرة الصهيونية .

هذا الرجل الذى قام بكل هذه العمليات من الانتقاء وعلق عليها فى المقدمة الطويلة للكتاب – هو المؤرخ اليهودى الأمريكى « أرثر هيرتسبرج » الذى سبق له إصدار كتاب « الدين والأزمة » واشترك فى وضع كتاب « مقالات فى الحياة اليهودية والفكر اليهودى » .

يقول « هيرتسبرج » فى المقدمة التى صدر بها كتاب « الفكرة الصهيونية » :

إن قيام إسرائيل خلق مشاكل لليهود فى كل مكان ؛ كما خلق مشاكل ليهود إسرائيل أنفسهم ، ومن هنا كان على الصهيونية أن تقوم بدور مزدوج :

ويطلق على :

● مساندة الدولة اليهودية ، والمساهمة فى علاج مشاكلها الاقتصادية ، وتزويدها بتيار مستمر من المهاجرين الجدد الذين يقيمون مستوطنات جديدة .

● العمل على إقناع يهود العالم – ولا سيما اليهود غير الصهيونيين – بأن هناك حلولا لمشاكلهم الناشئة عن قيام الدولة اليهودية ، وفى مقدمتها مشكلة الولاء المزدوج .

● وهناك مشاكل ونتائج أخرى كثيرة وهامة وملموسة لنا نشأت عن قيام الدولة اليهودية ، ولكن ، كيف يتأتى للدعوة الصهيونية أن تجىء بكل هذه النتائج ؟

وما التاريخ الذى مرت به النظريات والفلسفات والادعاءات الصهيونية ؟

يبين « هيرتسبرج » هذا فيما يلى :

صيحة اليهود فى روسيا

يضع « هيرتسبرج » عشر مراحل لنشوء وتطور الفكرة الصهيونية ، ويطلق على **المرحلة الأولى** منها اسم « مرحلة الرواد » ، وهى التى يمثلها الحاخام (الكالاى) ، والحاخام (كاليسكر) والفيلسوف الألمانى (موسى هيس) . حيث يعتبر أن هؤلاء الثلاثة هم رواد الفكرة الصهيونية ، ويشير إلى أن هذه المرحلة – على أهميتها – لم يتركز عليها حتى الآن الاهتمام الكافى فى أية دراسة عن تاريخ الدعوة الصهيونية !

أما المرحلة الثانية على حسب تقسيم « هيرتسبرج » فهى التى يسميها « صيحة اليهود فى روسيا خلال سبعينيات وثمانينيات القرن الماضى » ويختار لها أربعة من كبار دعاة الصهيونية من يهود روسيا وأهمهم « ليو بنسكر » الذى تعتبر كتاباته التمهيد المباشر لظهور نظرية تيودور هيرتسل « الدولة اليهودية » .

وتشمل هذه المرحلة حقْبتين : هما الحقبة التى تبدأ بمذابح اليهود الروس فى أوديسا (التى كانوا يتخذونها مركز تجمع ثقافياً لهم) عام ١٨٧١ ، والحقبة التى تبدأ بالمذابح التى تعرض اليهود لها فى معظم مدن روسيا عام ١٨٨١ على إثر اغتيال القيصر ألكسندر الثانى فى مارس من

ذلك العام ، وتوجيه تهمة اغتياله إلى اليهود ، ويقال : إن هذه المذابح الأخيرة شملت ١٦٠ مدينة وقرية روسية من تلك التى يقطنها اليهود .

وكان لابد لهذه المذابح — التى لا شك فى أن الكثيرين من اليهود راحوا ضحايا لها على يد جماهير الغوغاء (ومعظمهم من الأميين) فى ذلك الوقت ، وبتواطؤ من جانب أجهزة الأمن وسلطات الحكم فى كثير من الأحيان — كان لابد لهذه المذابح التى وقعت على هذا النحو أن تحدث أثرها لدى اليهود الروس ، وتدفعهم إلى إطلاق صيحة عالية إلى جميع العالم ولاسيما يهود العالم الغربى الذين كان الكثيرون منهم ينعمون بالجاه والسلطان ، ولا يحسون بالمجازر التى يتعرض لها أبناء جلدتهم فى روسيا القيصرية !

لذلك فإن « هيرتسبرج » يعتبر هاتين الحقبتين مرحلة كاملة فى تاريخ الحركة الصهيونية ، حيث إن عددا من مفكرى اليهود الروس فى تلك الفترة تلقفوا آراء « رواد الصهيونية » ، وراحوا يدعمونها بكتاباتهم ، ويضيفون إليها ، ويحاولون بلورتها بعد أن وقع فى روعهم أنه لم يعد من الممكن لأى يهودى فى العالم — بعد مذابح روسيا — أن يعيش وسط أبناء أى بلد أو الاندماج معهم ، ومن ثم فإن طريق الخلاص الوحيد — فى رأيهم — يصبح : « العودة إلى وطن الأجداد » : أى استيطان فلسطين !

وقبل المذابح كانت حركة « الهسكلاه » أو « التنوير » التى بدأها

« موسى مندلسون[١] » فى ألمانيا قد انتشرت إلى روسيا ، واعتنقها الكثيرون من اليهود الروس ، وكانت هذه الحركة تدعو اليهود إلى التخلى عن الصفات الذميمة التى تجعلهم مكروهين من أبناء الديانات الأخرى مثل الإقراض بالربا والانعزال عن المجتمع والترفع عن الاشتغال بالأعمال اليدوية ، ونهب الأرض من الفلاحين ! وقال أصحاب هذه الدعوة : يجب علينا نحن اليهود أن نصلح ما بأنفسنا وأن نحسن التعامل مع غيرنا ، ثم بعد ذلك نعيش فى أمن ، وننعم بالسلام ! (صفحة ١٤٩) .

أما بعد المذابح فقد أخذ عدد من اليهود يتخلصون من « الهسكلاه » ويتشددون فى دعوتهم إلى « القومية اليهودية » .

والمفكرون الأربعة الذين يمثلون هذه المرحلة هم :

١ — « بيريتس سمولنسكين » (١٨٤٢ — ١٨٨٥) الذى كتب قصة اليهودى التائه المشهورة ، وجعل عنوانها « التائه فى دروب الحياة » وفيها يصور حياته الخاصة حتى إنها لتعتبر بمثابة « سيرة ذاتية » ، وهى أطول عمل قدمه ، كما أنها كانت أكثر الكتب انتشارا بين اليهود فى ذلك الوقت ، حيث إنها تصور حياة جيل كامل من اليهود أرادوا أن يخرجوا

---

(١) فيلسوف وكاتب يهودى ألمانى مشهور (١٧٢٩ — ١٧٨٦) ترجم البنتاتويخ (الأسفار الخمسة الأولى من التوراة) إلى الألمانية ، وهو صاحب دعوة « التنوير » التى تقضى بأن يكيف اليهود حياتهم مع طبيعة الحياة فى العالم الحديث ، وقد لاقت هذه الدعوة انتشارا واسعا فى ألمانيا ، وأصبح لها أنصار كثيرون من مفكرى ومثقفى اليهود الذين أخذوا يدعون إلى تحطيم عقليات « حارات اليهود » المغلقة واتباع وسائل الحياة الغربية الحديثة .

من الحارات الضيقة المغلقة عليهم ، وينطلقوا إلى العالم الحديث .

وخلاصة ما يدعو له سمولنسكين هو أن اندماج اليهودى فى المجتمعات الأخرى أمر غير ممكن عمليا ، لأنه حتى لو سعى إلى هذا الاندماج فإن المجتمع غير اليهودى لن يقبله ، كما أنه هو نفسه لن يحس بالارتياح . ويمكننا أن ندرك أثر المذابح على تفكير سمولنسكين عندما نلمس فى كتاباته الأولى تعريفات لليهودية بأنها فكرة روحية ودعوات إلى إحياء الثقافة اليهودية والتراث اليهودى باعتباره جزءا من التراث الإنسانى العام .

أما بعد المذابح فقد ترك ذلك كله جانبا وأخذ يدعو إلى جلاء اليهود التام عن أوربا الشرقية ، كما عارض فى هجرة يهود روسيا وشرقى أوربا إلى القارة الأمريكية لأن المجتمع الأمريكى لن يكون أقل قسوة على اليهود من المجتمع الروسى ، ولأنه يجب على اليهودى ألا يعيد حلقات الماضى الرهيب ، ولذلك فليس هناك سوى طريق واحد : الصهيونية » . .

٢ – اليعازر بن يهودا (١٨٥٨ – ١٩٢٣) واسمه الأصلى اليعازر بيرلمان ثم غيّره لكى يصبح عبريا تماما ، وقد قام بدور حاسم – كما أشرنا سالفا – فى إحياء اللغة العبرية وتبسيطها بحيث تصبح صالحة للتخاطب فى الأحاديث اليومية . أما كتاباته فليست لها قيمة كبيرة عدا التفسير الجديد الذى أعطاه معجزة ظهور المسيح الجديد (فى محاولة للمواءمة بين الدين اليهودى والحركة الصهيونية) حيث قال إن هذا المسيح الجديد : ليس من الضرورى أن يكون نبيا مرسلا وإن المعجزة الحقيقية تكمن فى

ضرورة إنهاء التاريخ المميز لليهود وتحولهم إلى أمة علمانية حديثة (وهو جوهر الصهيونية) أى أن الحركة الصهيونية الحديثة هى وسيلة الخلاص الدنيوية.

وفى أواخر سبعينيات القرن الماضى ظهر تغيير فى الحياة العامة فى روسيا ؛ فقد ثار البلغار ضد تركيا ، ولاقوا المساندة من الروس الذين اعتبروا من الأمور المقدسة أن يساعدوا إخوتهم «السلافيين» ، وبرزت القومية السلافية مما أثار لدى بِنْ يهودا عاطفة «القومية اليهودية» وقد أخذها من الناحية السياسية العلمانية ، وليس من الناحية الدينية ، لذلك فقد قرر الهجرة إلى باريس لدراسة الطب على أن يتجه بعد ذلك إلى فلسطين لكى يمارس عمله كطبيب ، ومن هناك أخذ يراسل سمولنسكين ، ودارت بينهما محاورات حول أهمية إحياء اللغة العبرية وتعليمها للجيل الجديد من اليهود فى كل مكان لكى تصبح لغة التعامل فى المستوطنات اليهودية التى كان يجرى التخطيط لها.

وحتى الآن مازالت أحدث قواميس اللغة العبرية تعتمد على المعجمات التى وضعها بِنْ يهودا. كما ذكرنا من قبل.

٣ - موشى لايب ليلينبلوم (١٨٤٣ - ١٩١٠) كان له دور كبير فى العمل على إقامة «مستوطنات» يهودية فى فلسطين ، ثم أصبح بعد ذلك واحدا من أهم مؤيدى هيرتسل النشيطين فى روسيا.

٤ - ليوبنسكر (١٨٢١ - ١٨٩١) : كان من أكثر اليهود الروس

اندماجا فى المجتمع الروسى قبل أحداث عام ١٨٨١ ، ولكنه تحول بعدها إلى صهيونى متعصب ، بل إنه كان أكثر اليهود الروس تأثرا بهذه الأحداث ، فقد انقلب من النقيض إلى النقيض .

فقد درس الطب فى جامعة موسكو مع أبناء الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الروسى ، وأصبح من مشاهير الأطباء وخلال حرب القرم قام بجهود ضخمة لمكافحة وباء التيفوس الذى تفشى بين الجنود استحق من أجلها أن يمنحه القيصر وساما .

وكان فى البداية يدعو إلى ضرورة سيادة اللغة الروسية فى الحياة الداخلية لليهود حتى فى الطقوس الدينية اليهودية ، وانضم إلى جمعية نشر الثقافة الروسية ، وأصبح واحدا من أنصار حركة « الهسكلاه » . حتى بعد مذابح أوديسا ظل على رأيه بضرورة إدماج اليهود فى المجتمع الروسى ، وضرورة مساهمة اليهود فى تطوير هذا المجتمع ، والقيام بدورهم كغيرهم من المواطنين المخلصين .

وعلى إثر وقوع مذابح عام ١٨٨١ ترك رسميا جمعية نشر الثقافة الروسية ، وأعلن أنه يجب البحث عن « وسائل جديدة وعلاجات جديدة » ، فسافر إلى شرق أوربا وغربيها حيث أخذ ينادى بآرائه الجديدة بشأن تجميع الجزء الأكبر من اليهود فى « دولة قومية » لم يحددها ، وإنما قال « إن من الأفضل أن تكون فلسطين » . وكان أساس مجادلته هو أن العداء للسامية قد جعل وضع الأقلية أمرا غير محتمل بالنسبة لليهود فى

أى مكان ، وأنهم لكى ينقذوا أنفسهم يجب أن يعيشوا ككيان مستقل منفصل فوق أى أرض صالحة لإقامة وطن يهودى عليها ، ولإقامة مستوطنات يهودية عليها

وعندما عرض هذا الرأى على كبير حاخامات فيينا الذى كان صديقا مقربا لوالده قال له : « إنك فى حالة صدمة عاطفية من أثر مشاهدتك للمذابح ، وتحتاج إلى رعاية طبية ! »

وأحدثت دعوته ردَّ فعل سيئاً بين اليهود عموما : فالمتدينون قالوا : إنه « قليل الدين » ، والمتحررون وخصوصا خارج روسيا وصفوه بأنه خائن لعقيدة الانتصار النهائى للإنسانية على الحقد والتحيز .

واتجه على الإثر إلى إنشاء جمعية أحباء صهيون عام ١٨٨٤ فى مؤتمر عقده خصيصا لهذا السبب ، وأمضى بقية حياته فى العمل على إحياء هذه الجمعية وجمع التبرعات لها . وكان أهم ما خلفه هو كتاب « الانعتاق الذاتى » الذى يعتبره هيرتسبرج « أول بيان هام عن آلام اليهود الذين لفظهم العالم ، ودفعهم إلى البحث عن قوميتهم » .

* * *

ظهور هيرتسل

المرحلة الثالثة :

الانفتاح على العالم الخارجى :

لاشك أن هيرتسل يمثل بمفرده مرحلة كاملة من المراحل العشر لتطور الفكرة الصهيونية وأهم دور قام به دوره فى مجال الدبلوماسية ، وإجراء لقاءات شخصية مع عدد من أقطاب العالم لمحاولة التأثير فيهم من أجل قبول الدعوة الصهيونية والموافقة عليها وكان من بين هؤلاء الأقطاب العالميين سلطان تركيا والقيصر فيلهلم قيصر ألمانيا وملك إيطاليا ، والبابابيوس العاشر .

ومن هنا فإن هيرنسل أدخل الفكرة الصهيونية إلى مجال الانفتاح على العالم واجتذاب أنصار لها من خارج نطاق دائرة الشخصيات اليهودية العالمية والانطلاق إلى الحكام الذين يمكن أن يكون لهم تأثير مباشر فى منح حق الهجرة الجماعية ليهود العالم إلى فلسطين وهو البند الرئيسى فى البرنامج الذى وضعه هيرتسل للوصول إلى إقامة « دولة » لليهود فى فلسطين .

ولقد كان النجاح الكبير الوحيد الذى حققه هيرتسل فى مجال اتصالاته الدبلوماسية هو حصوله من الحكومة البريطانية عام ١٩٠٣ على

عرض جزء كبير من أراضى أوغندا (التى كانت مستعمرة بريطانية فى ذلك الوقت) لإقامة «مستوطنة» يهودية متمتعة بالحكم الذاتى عليها.

ومن السخرية أن هذا النجاح الوحيد الذى حققه هيرتسل عمليا قد تحول إلى سلاح ضده خلال المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقد فى عام ١٩٠٣ – وهو آخر مؤتمر حضره هيرتسل – حينما طلب من المؤتمر قبول هذا العرض «كملجأ مؤقت» ذلك لأنه فى هذا العام نفسه وقعت مذبحة لليهود بإقليم كيشينيف فى روسيا؛ وقد جاءت أعنف المعارضة لذلك الاقتراح من جانب وفد الصهيونيين الروس الذى كان يتزعمه فى ذلك الوقت «الشاب» حاييم وايزمان الذى أصبح فيما بعد أول رئيس لإسرائيل

إن المجادلات التى أثيرت خلال هذا المؤتمر الصهيونى بين هيرتسل من جانب، ووايزمان وسائر المعارضين من جانب آخر – كانت لها أهمية حاسمة فى تاريخ الفكر الصهيونى، لأنها انتهت إلى قرار نهائى بأن يكون هدف الصهيونية هو جبل صهيون، وليس أى أرض أخرى! وربما كان هناك عامل آخر حاسم لإنهاء الجدل لغير مصلحة هيرتسل هو أن حكومة بريطانيا نفسها سحبت عرضها الخاص بمنح أوغندا لليهود بعد نحو سنة من تقديمه؛ ومن ثم لم يعد أمام الحركة الصهيونية إلا أن تتجه فى النهاية إلى فلسطين.

ومثلما كانت مذابح روسيا نقطة تحول فى الفكر الصهيونى بين اليهود الروس فى المرحلة السابقة – فقد كانت نقطة التحول بالنسبة لهيرتسل هى

قضية دريفوس :

ففى عام ١٨٩٤ وجهت إلى الكابتن ألفريد دريفوس الضابط اليهودى بالجيش الفرنسى تهمة التجسس لحساب ألمانيا ، وقدم إلى المحاكمة العسكرية ، وحضر هيرتسل هذه المحاكمة كمراسل لصحيفة « نووى فرايه بريسه »[١] ، ورأى دريفوس وهو يجرد من رتبته ، ويساق إلى خارج قاعة المحكمة بعد أن صدر الحكم بنفيه إلى الخارج وسط هتاف الجماهير « يسقط اليهود » . .

وقد أعيدت محكمة دريفوس بعد ذلك مرتين — تحت إلحاح الكاتب الفرنسى اليهودى إميل زولا ، ثم برىء من تهمة التجسس ، وأعيد إلى الخدمة بالجيش الفرنسى ، واشترك بالفعل فى الحرب العالمية الأولى .

المهم أن قضية دريفوس هذه هى التى حولت هيرتسل إلى صهيونى ؛ فقبل أن يشهد هذه المحاكمة كان يؤمن بإمكان التفاهم الأفضل مستقبلا بين اليهود والمسيحيين ، ولم يتكن كتاباته تتضمن أكثر من إشارات متفرقة إلى « اليهود » ، وكان يعتنق وجهة النظر السائدة بين مثقفى اليهود الغربيين فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى أن البشرية كلها تسير نحو التقدم ؛ وأن اندماج اليهود فى المجتمع البشرى أمر مرغوب فيه فضلا على أنه أمر لا يمكن تجنبه .

---

(١) « الصحافة الحرة الجديدة » وكانت أهم صحيفة تصدر فى فيينا (عاصمة إمبراطورية النمسا والمجر فى ذلك الوقت) ، وقد بدأ هيرتسل العمل فى هذه الصحيفة عام ١٨٩٢ .

أما بعد قضية دريفوس فقد تحول على الفور إلى داعية صهيونى : ففى مايو ١٨٩٥ توجه لمقابلة البارون دى هيرش مؤسس الجالية اليهودية فى الأرجنتين لكى يطلعه على آرائه الجديدة بشأن إقامة وطن قومى لليهود ، ثم أرسل إليه خطابا طويلا فى الشهر التالى يتضمن أول وثيقة مكتوبة لدعوته الصهيونية ، ولما وجد أن البارون دى هيرش لا يكترث بآرائه توجه بها إلى آل روتشيلد ، فعكف خلال خمسة أيام متصلة على كتابة ٥٥ صفحة فى يومياته صب فيها آراءه بطريقة محمومة وجعل عنوانها : « خطاب إلى آل روتشيلد » ، وهى تعتبر تلخيصا لكتابه التالى الأهم : « الدولة اليهودية » .

يقول هيرتسل فى هذا « الخطاب » : « عندى الحل للمشكلة اليهودية ، وأعرف أنه يبدو ضربا من الجنون ، وفى البداية سيقال عنى أكثر من مرة : إننى مجنون !

وفى بداية العام التالى وبعد إعادة ترتيب أفكاره التى دونها فى يومياته ، وبعد الصعوبات التى واجهها فى العثور على ناشر — ظهر كتابه « الدولة اليهودية » الذى يعتبر بلا جدال أهم وثيقة فى تاريخ الصهيونية .

وقبل أن ينعقد المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل فى ٢٩ من أغسطس ١٨٩٧ أنشأ هيرتسل صحيفة « دى فلت » أى « العالم » الأسبوعية لتكون الصحيفة الناطقة بلسان الحركة الصهيونية فى حين ظل الكتاب اليهود

المتحزرون يشيرون فى صحفهم إلى هيرتسل بصفات « المجنون » والمغامر !

وفى مؤتمر بازل حضر أكثر من مائتى مندوب من مختلف أرجاء العالم تلبية لدعوة هيرتسل لكى يشتركوا فى تأسيس « المنظمة الصهيونية العالمية » التى عبر هيرتسل فى خطابه عن أهدافها الاستيطانية عندما قال : « إن الصهيونية تسعى إلى أن تؤمن للشعب اليهودى وطنا فى فلسطين معترفا به من حول العالم ومأموناً من الناحية الشرعية » .

وقد مات هيرتسل فى صيف عام ١٩٠٤ ، وبعد ٤٥ سنة نَقَلَتْ إسرائيل رفاته لكى تدفنه عندها باعتاره المهندس الرئيس الذى رسم خطة إقامة « الدولة » !

ومن الواضح أن هيرتسل مات مغمورا ، ولم تلحق به الشهرة والتقدير إلا بعد سنين طويلة من وفاته ، ومن الغريب أن أحد أتباعه كان أكثر شهرة منه :

ذلك التابع الذى كان أهم مؤيد لهيرتسل فى أوقات الأزمات هو ماكس نورداو (١٨٤٩ - ١٩٢٣) ، وقد ولد قبل هيرتسل بأحد عشر عاما ، ومات بعده بتسعة عشر عاما ، وعندما بدأ هيرتسل دعوته كان نوردا وقد اكتسب شهرة واسعة ككاتب تقدمى وناقد للمجتمع وكطبيب نفسانى .

وهناك رواية غير مؤكدة تقول : إن هيرتسل لجأ إلى نورداو لاستشارته كمتخصص نفسانى بعد أن اتهمه الكثيرون بالجنون ! وبعد جلسات

امتدت عدة أيام مد نورداو يده إلى هيرتسل قائلا : « إذا كنت أنت مجنونا فكذلك أنا » ومنذ ذلك الوقت أصبح نورداو صهيونيا .

وقد ألقى نورداو خطابا فى بداية المؤتمر الصهيونى الأول ، واستمر فى هذه العادة فى جميع المؤتمرات التالية حتى المؤتمر العاشر . وعندما صدر وعد بلفور عام ١٩١٧ كان نورداو فى إسبانيا ، وأخذ يطالب مرارا بأن ينص الوعد على إقامة « دولة يهودية » فى فلسطين وليس فقط : « إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ! » .

مرحلة الحاخام «أحدهعام»

المرحلة الرابعة :

كما أن هيرتسل يكاد وحده يمثل المرحلة الثالثة كلها فإن المرحلة الرابعة أيضا تتمثل تقريبا فى «أحد هعام» الذى يعتبر نقيض هيرتسل : فإذا كان هيرتسل هو الزعيم «السياسى» للدعوة الصهيونية فإن «أحد هعام» هو الزعيم «الروحانى» لها .

وفى معظم كتابات «أحد هعام» يتباكى على دعوة «أحباء صهيون» وعلى الاستعاضة عنها «بالصهيونية» ؛ فهو يريد أن تتخذ عودة اليهود إلى فلسطين شكل **مستوطنات دينية ثقافية** لإحياء الديانة اليهودية فى الأرض المقدسة ، ولنشر الثقافة اليهودية من الأرض المقدسة إلى جميع أنحاء العالم خلافاً لما دعا إليه هيرتسل من إقامة «دولة يهودية» .

وقد نشأ أحد هعام فى أوكرانيا لأسرة من أغنى أسر حارات اليهود فى ذلك الوقت ، وفى صباه قرأ أعمال أكبر الفلاسفة اليهود فى العصور الوسطى ولاسيما موسى بن ميمون ، ثم أخذ يقرأ لفلاسفة «الهسكلاه» المعاصرين ، وانتهى به الأمر إلى أن كفر بالديانة اليهودية ذاتها !

وفى عام ١٨٨٦ عندما كان عمره ثلاثين سنة انتقلت أسرته إلى أوديسا بعد أن أصدر القيصر قرارا بمنع اليهود من تأجير الأرض الأمر

الذى كان بمثابة صدمة اقتصادية خطيرة للأسرة . وبعد ثلاث سنوات نشر أول مقالة له بعنوان « ليس هذا هو الطريق » ، ووقعها بكلمتى « أحد هعام » أى أحد العامة لأنه لم يكن يعتبر نفسه كاتبا . ومنذ تلك اللحظة أصبح معروفا بهذا الاسم العبرى بقية حياته أما اسمه الأصلى فهو آشر زفى جينسبرج .

وقد استقر فى فلسطين منذ عام ١٩٢١ إلى أن مات بعد ست سنوات ، وكان يدرك أنه يفتقر إلى صفات الزعامة ، ولكن بعض أنصاره شكلوا جمعية « أبناء موسى » التى كانت تستهدف التركيز على النواحى الثقافية والأخلاقية لدعوة « إحياء القومية اليهودية » .

واضطر بعد تردد أن يصبح زعيما لهذه الجماعة وفشل فى مهمته . فإن آراءه قوبلت بالرفض من جانب غالبية أنصار الدعوة الصهيونية . وقد حضر المؤتمر الصهيونى الأول الذى دعا هيرتسل إلى عقده فى بازل عام ١٨٩٧ ثم آلى على نفسه ألا يحضر أى مؤتمر صهيونى بعد ذلك وبرغم ذلك فإن الكثيرين من أبناء الجيل التالى من يهود شرقى أوربا – ومنهم حاييم وايزمان – اعترفوا بأنهم يدينون له بالكثير . وعندما كان وايزمان يفاوض الوزراء البريطانيين بشأن إصدار وعد بلفور فى عام ١٩١٧ كان يتخذ من أحد هعام واحدا من المستشارين المقربين له .

ومن أهم كتاباته : « قانون القلب » (١٨٩٤) ، و« الروح والجسد » (١٩٠٤) « والقومية والدين » (١٩١٠) و« نقيض الشتات » (١٩٠٩) .

وإلى هذه المرحلة الرابعة ينتمى أيضا الشاعر اليهودى الروسى حاييم نحمان بياليك حيث إن الشعر العبرى ازدهر بين اليهود الروس فى تلك الفترة إلى مدى لم يصل إليه منذ العصور الوسطى . وبعد قيام النظام الشيوعى سمحت السلطات الروسية لهذا الشاعر فى عام **١٩٢١** بالهجرة إلى فلسطين حيث اشترك فى حفل افتتاح الجامعة العبرية عام **١٩٢٥** ، ثم مات فى فيينا ، ونقل جثمانه لكى يدفن فى تل أبيب .

مرحلة المتمردين

المرحلة الخامسة :

ويطلق عليها اسم « مرحلة المتمردين فى أقصى درجات تحديهم » واليها ينتمى الكتاب والمفكرون اليهود الذين كانوا يكرهون الأوضاع اليهودية والتقاليد اليهودية والديانة اليهودية ذاتها ، ويتمردون عليها برغم إحساسهم بالارتباط بها .

أحدهم جاكوب كلاتسكين كان أكبر ثائر على التقاليد اليهودية داخل نطاق دعاة الصهيونية . وقد تولى رئاسة تحرير صحيفة « دى فلت » سنتين (١٩٠٩ - ١٩١١) ، وهى كما ذكرنا الصحيفة الأسبوعية التى أنشأها هيرتسل ، لكى تكون لسان حال المنظمة الصهيونية العالمية . وقد اشترك هو وناحوم جولدمان (الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية العالمية) فى تأسيس شركة أشكول للنشر فى برلين خلال العشرينيات وفى إصدار « دائرة المعارف اليهودية » التى ظهرت منها بالفعل عشرة أجزاء باللغة الألمانية وخمسة أجزاء باللغة العبرية قبل أن يتوقف الإصدار إثر مجىء هتلر إلى السلطة فى عام ١٩٣٣ ، فنى العام نفسه سافر كلاتسكين إلى سويسرا ثم إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤١ ، وبعد الحرب العالمية الثانية عاد إلى أوربا حيث مات فى سويسرا عام ١٩٤٨ .

وقد كان كلاتسكين يعتبر نفسه فيلسوفا محترفا ، وفلسفته الصهيونية هى أنه ليس أمام اليهود جميعا إلا أحد طريقين : الهجرة إلى فلسطين أو الاختفاء عن طريق التزاوج مع أبناء الأديان الأخرى ! وليس هناك حل وسط ولا بديل لهذين الطريقين ، وأنه لا مجال للحديث عن المصير الفريد أو المهمة الفريدة أو الروح الفريدة لليهود ؛ فإن ما يصنع الأمة - أى أمة - هو الأرض واللغة ، ومن ثم فإنه ليس أمام اليهود - لكى يحافظوا على كيانهم - إلا أن « يحصلوا من جديد على أرضهم وأن يعودوا إلى التكلم بلغتهم : العبرية » .

صهيونية الاشتراكيين الماركسيين والحالمين

المرحلة السادسة :

رأينا أن أول مفكر صهيونى حاول الربط بين الصهيونية والاشتراكية كان موسى هيس ، الذى ينتمى إلى المرحلة الأولى لتطور الفكرة الصهيونية ؛ لذلك فإن كتاباته لم تلبث أن نسيت . إلا أنه بظهور صهيونية هيرتسل كان لابد من إسباغ صفة الاشتراكية على الحركة الصهيونية نظرا لأن المذاهب الاشتراكية خلال تسعينيات القرن الماضى كانت تمثل أكبر تأثير على تفكير المثقفين اليهود من الشباب .

وكانت أنسب تربة للجمع بين الصهيونية والاشتراكية هى يهود روسيا وظروف الاضطهاد والبؤس التى كانوا يتعرضون لها خلال حكم القياصرة .

وكان رائد فلاسفة الصهيونية الاشتراكية بين اليهود الروس هو نحمان سيركين (١٨٦٧ – ١٩٢٤) الذى أصدر كتاب « المشكلة اليهودية والدولة اليهودية الاشتراكية » عام ١٨٩٨ بعد عام من حضوره المؤتمر الصهيونى الأول ، وظل مرتبطا بالمنظمة الصهيونية العالمية حتى عام ١٩٠٥ عندما تيقن أن أغلبية المؤتمرين يرفضون العرض الذى قدمته بريطانيا خاصا

بإقامة وطن يهودى فى أراضى أوغندا ، فقد كان يؤمن بأن الوطن اليهودى يجب أن يقام على أى أرض يمكن إقامة المستوطنات عليها وليس بالضرورة على أرض فلسطين !

وفى عام ١٩٠٤ وصل إلى شواطئ فلسطين مهاجرٌ عادى من مهاجرى اليهود الأوائل ، وأخذ يشتغل فى أعمال يدوية مع الشباب الذين هم أصغر منه سناً والذين سرعان ما التفوا حوله ، وجعلوا منه أسطورة فى حياته وبعد موته .

كان قد ولد فى الريف الروسى حيث أمضى طفولته وشبابه فى مزرعة تستأجرها أسرته ، وبعد إلغاء تأجير الأراضى لليهود انضم إلى جماعات « أحباء صهيون » ، ونصحه بعض بالهجرة إلى أمريكا والبحث عن عمل هناك ، ولكنه فضل الهجرة إلى فلسطين حيث كان عمره ٤٨ سنة ، كما كان ضعيف البنية . ولكنه أصر على الاشتغال بالأعمال اليدوية لكى يكون قدوة لغيره من شباب اليهود الذين اجتذبتهم الدعوة الصهيونية فى ذلك الوقت ، ودفعت بهم للهجرة إلى « أرض المعاد » واشتغل بالفعل فى مزارع الكروم فى مستوطنة « بتاح تيكفا » القريبة من تل أبيب ، واعتبر هذا العمل امتداداً لعمله السابق فى مزارع روسيا . وبعد خمس سنوات من العمل أرسل فى استدعاء زوجته وابنته من روسيا . وماتت زوجته فور وصولها إلى فلسطين ، أما هو فقد أمضى أيامه الأخيرة فى العمل بمستوطنة دجانيا التى قرب الشاطئ الجنوبى لبحيرة طبرية ، وهى تعتبر أول

مستوطنة زراعية جماعية «كيبوتز» أقامها دعاة الصهيونية فى فلسطين.

هذا الرجل الذى يعتبرونه رائد فكرة الكيبوتزات هو آرون دافيد جوردون (١٨٥٦ – ١٩٢٢). ويحلو للإسرائيليين الآن أن يشبهوا حياة جوردون بحياة الكاتب الروسى الشهير ليوتولستوى الذى هرب من أسرته لكى يعيش بين الفلاحين!

ولابد من الإشارة إلى الرجل الذى أسس صحيفة «دافار» عام ١٩٢٥ لكى تكون لسان حال الهستدروت (اتحاد نقابات العمال اليهود فى فلسطين) والتى مازالت تصدر حتى الآن فى إسرائيل وتتخذ الصفة نفسها، هذا الرجل هو بيرل كاتسنلسون (١٨٨٧ – ١٩٤٤) وقد ظل يرأس تحرير «دافار» إلى أن مات، كما أنه أنشأ دار نشر «عام عوفيد» أو «الشعب العامل» التابعة للهستدروت، وظل لسنوات طويلة عنصراً مؤثراً فى الحياة الثقافية للعمال اليهود فى فلسطين.

وهو يمثل جيل اليهود الروس الذين ولدوا خلال ثمانينيات القرن الماضى (حقبة المذابح) ثم جاءوا إلى فلسطين فى شبابهم، وأصبح يطلق عليهم اسم «موجة الهجرة الثانية».

[موجة الهجرة الأولى جاءت فى أعقاب المذابح مباشرة إثر إنشاء جمعية أحباء صهيون عام ١٨٨٤] وأصبحوا يتولون قيادة حركة الاستيطان الصهيونية الجديدة، وهى الحركة التى سيطرت، ومازالت تسيطر، على حكومات إسرائيل حتى الآن، وكان من أبرز أقطابها:

دافيد بِنْ جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل وإسحق بن زفى ثانى رئيس لإسرائيل .

وقد وصل كاتسنلسون إلى حيفا وعمره ٢٢ سنة وبدأ العمل كزارع ، ثم شرع فى إجراء تنظيمات للعمال ، وخلال الحرب العالمية الأولى انضم إلى « الفيلق اليهودية » الذى جرى تشكيله فى ذلك الوقت لكى يحارب جنباً إلى جنب مع الجيوش الإنجليزية .

* * *

القوميون الدينيون القدامى والمحدثون

المرحلة السابعة :

القوميون الدينيون ، القدامى والمحدثون : وهى مرحلة العودة للتركيز على « القومية الدينية » ، وكان لابد من محاولة الربط من جديد بين تقاليد الديانة اليهودية العريقة وبين « القومية اليهودية » بمعناها الحديث . ومن هنا فإن تطور الفكرة الصهيونية سوف يتحول الآن إلى خط منكسر حيث تدخل إليه ارتدادةٌ نحو الماضى .

ورائد هذا الاتجاه الجديد هو الحاخام صمويل موهيلفر (١٨٢٤ – ١٨٩٨) الذى قام بدور رئيسى فى تطور الدعوة الصهيونية فى روسيا خلال فترة ما قبل هيرتسل عن طريق حركة « أحباء صهيون » ثم عاش إلى أن اعتنق مبادئ هيرتسل ، وساهم فى إقامة المنظمة الصهيونية العالمية وتمكينها من امتصاص جماعات « أحباء صهيون » .

ولقد أصبح موهيلفر حاخاماً وهو فى سن ١٨ ثم اشتغل بتجارة الكتان لمدة خمس سنوات ، ولكن تجارته أصيبت بانتكاسة ، ومن ثم أذعن وقبل من جديد منصب حاخام فى القرية التى ولد بها ، وهى قريبة من فيلنا فى ليتوانيا (التى أصبحت الآن واحدة من جمهوريات الاتحاد السوفيتى) وقد اشتهرت مدينة فيلنا فى ذلك الوقت بأنها المركز

الثقافى ليهود ليتوانيا .

وفى حقبة السبعينات (التى ابتدأت بمذابح أوديسا) كان موهيلفر قد أصبح حاخاماً لمدينة رادوم فى بولندا ، وبدأت تظهر عليه علامات الاهتمام بالنشاط الصهيونى ، ثم أخذ يمارس النشاط الصهيونى عملياً بعد مذابح عام ١٨٨١ حيث رأى عشرات الآلاف من اليهود الروس يعبرون الحدود إلى جالاسيا (شطر بولندا الذى كان خاضعاً لحكم النمسا) . . . وفى ذلك الوقت حضر مؤتمراً لزعماء اليهود الغربيين انعقد فى مدينة ليمبرج (عاصمة جالاسيا) للبحث فيما يمكن عمله بشأن هؤلاء اللاجئين الفارين من المذابح . ورفع صوته طالباً تحويلهم إلى فلسطين ، ولكن أحداً لم يلتفت إليه ؛ لأن اليهود الغربيين كانوا يريدون حلولاً عملية ، فضلاً على أن الدعوة الصهيونية لم يكن لها أى أثر فى ذلك الوقت بين اليهود الغربيين .

وفى طريق عودته زار وارسو حيث استطاع أن ينظم فيها أول فرع لمنظمة « أحباء صهيون » التى كانت حديثة الإنشاء فى روسيا فى ذلك الوقت . كذلك قد تمكن من إقناع اثنين من حاخامات جالاسيا بالانضمام إليه فى إصدار دعوة للهجرة إلى فلسطين . . إلا أن هذين الحاخامين سرعان ما تراجعا عن هذه الدعوة .

وقد وقعت بعد ذلك سلسلة طويلة من الخلافات بينه وبين المكتب الرئيسى لمنظمة « أحباء صهيون » فى أوديسا ، نظراً لأن هذه المنظمة

كانت تخضع لسيطرة ليوبنسكر وغيره من اليهود غير المتدينين الذين لم يكن لهم احترام لدى « المتدينين » من أمثال موهيلفر .

وكانت أكبر مساهمة قدمها لدعم الحركة الصهيونية هى الزيارة التى قام بها إلى باريس عام ١٨٨٢ لمقابلة البارون « الشاب » إدمون دى روتشيلد وإقناعه بالمشاركة فى تمويل إقامة المهاجرين اليهود فى فلسطين وتوطينهم هناك . وقد ظل روتشيلد – حتى وفاته فى عام ١٩٣٥ – أعظم ممول لإقامة المستوطنات اليهودية فى فلسطين .

وقبل أن يموت موهيلفر بسنة واحدة انعقد المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل ، ووجهت له الدعوة لحضوره ، ولكنه لم يتمكن من الحضور ، وإنما أرسل حفيده لكى يلقى خطابه هناك ، وكان هذا الخطاب هو آخر عمل كتبه ، وفيه يبدى تِسْعَ ملاحظات على المؤتمر من بينها طلب إرسال خطاب شكر إلى البارون إدمون دى روتشيلد « على جهوده الضخمة فى توطين المهاجرين اليهود فى فلسطين التى أنفق فيها عشرات الملايين من الفرنكات » .

وينتمى إلى هذه المرحلة أيضاً يهودا ليون ماجنس (١٨٧٧ – ١٩٤٨) الذى بدأ حياته فى سان فرانسسكو ، وانتهى فى معبد يهودى صغير بالقدس ، ثم أصبح فى عام ١٩٣٥ مديراً للجامعة العبرية فى القدس . وقد اختلف هو ومعظم دعاة الصهيونية الآخرين فى أنه كان يشك دائماً فى إمكان قيام دولة يهودية فى فلسطين ، وبرغم أنه عاش

حتى رأى إعلان قيام إسرائيل فى ١٤ مايو ١٩٤٨ ، وقضى خمسة أشهر فى إسرائيل قبل أن يقضى نحبه فى أغسطس من العام نفسه فقد ظل يرى أن « الأمل الوحيد لتحقيق أهداف اليهود الأساس بالنسبة له إنما هو إقامة دولة ذات قوميتين » (عرب ويهود) .

وآخر المنتمين إلى هذه المرحلة هو مارتن بوبر (١٨٧٨ – ١٩٦٥) الذى أسس فى عام ١٩١٦ صحيفة « دير يودى » أى « اليهودى » ، وظل يرأس تحريرها حتى عام ١٩٢٤ ، وخلال الفترة ما بين عامى ١٩٢٦ ، ١٩٣٠ اشترك هو وناشران آخران أحدهما كاثوليكى والآخر بروتستانتى فى إصدار صحيفة « دى كرياتور » التى تناقش المسائل الدينية مع التركيز على علاقاتها بالمشكلات الاجتماعية والتعليمية .

وبعد خمس سنوات من مجىء هتلر إلى الحكم هاجر بوبر عام ١٩٣٨ إلى فلسطين حيث شغل كرسى أستاذية الفلسفة الاجتماعية فى الجامعة العبرية حتى عام ١٩٥١ ، وبعدها ترك العمل عندما بلغ عمره ٧٣ سنة .

وعقب وصوله إلى فلسطين مباشرة انضم مع ماجنس وغيره ممن كان قد تعرف عليهم فى أوربا فى المطالبة بإقامة دولة ذات قوميتين فى فلسطين .

* * *

مرحلة بحث المثقفين عن الجذور

المرحلة الثامنة :

ويطلق عليها اسم «مرحلة بحث المثقفين عن الجذور» وتشمل ثلاثة من المثقفين اليهود من مختلف الجنسيات يبحثون عن جذور ثابتة أو أسس ثابتة يقيمون عليها آراءهم بخصوص المشكلة اليهودية ، ويرتبطون من خلالها بالديانة والتقاليد اليهودية الأصيلة ، هم الفرنسى برنارد لازار (١٨٦٥ - ١٩٠٣) ، والألمانى لودفيج لوسيون (١٨٨٣ - ١٩٥٥) ، والسويسرى إدمون فليج (١٨٧٤ - ١٩٦٧) .

فمثلاً اليهودى الفرنسى برنارد لازار كتب عن مشكلة العداء للسامية عام ١٨٩٤ فقال : إن أسبابه ترجع إلى اليهود أنفسهم وإلى إصرارهم على عدم الاندماج فى مجتمعاتهم وبالتالى فهو يرى أن علاج هذه المشكلة سيجىء تلقائياً مع الزمن عندما تتقارب الجماعات المختلفة ، ويجمعها إحساس إنسانى مشترك .

الصهيونية فى العالم الجديد (أمريكا)

المرحلة التاسعة :

نشأت الحركة الصهيونية فى أمريكا – مثلما نشأت الحركة الصهيونية فى أوربا – عن طريق يهود أوربا الشرقية . وفى البداية لم يكن لمنظمة «أحباء صهيون» التى نشأت فى روسيا إلا أصداء ضعيفة للغاية فى أمريكا ! إلا أن ظهور هيرتسل أدى إلى إحياء منظمة صهيونية أمريكية اسمها «فرسان صهيون» كانت قد أنشئت فى شيكاجو عام ١٨٩٦ قبل عام واحد من انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل ، كذلك فقد كانت هناك جماعات صهيونية مبعثرة فى المدن أخذت تنهض بعد مذابح روسيا وهجرة أعداد من اليهود الروس إلى أمريكا . وقد حضر ممثلون عن الصهيونيين الأمريكيين إلى مؤتمر بازل .

وقد كانت حصيلة كل هذه التحركات عقد مؤتمر للصهيونيين الأمريكيين فى نيويورك فى يوليو عام ١٨٩٨ تقرر فيه إنشاء «اتحاد الصهيونيين الأمريكيين» ، كجزء من المنظمة الصهيونية العالمية ، وكتجمع لكل الجماعات الصهيونية فى الولايات المتحدة وكان أول رئيس لهذا الاتحاد هو ريتشارد جوتهايل (١٨٦٢ – ١٩٣٦) .

وهو يعتبر أول مفكر صهيونى بارز فى أمريكا ، وقد كان أبوه جوستاف جوتهايل حاخاماً لأهم معبد تابع لحركة الإصلاح الدينى اليهودية (المعادية للصهيونية) ، وهو معبد عمانويل فى نيويورك ، وقد انضم الأب أيضاً للحركة الصهيونية ، وبذلك أحدث فضيحة بين أنصار حركة الإصلاح اليهودية .

وأهم عمل قام به ريتشارد جوتهايل إعادة كتابة أعمال هيرتسل بعد تكييفها ، طبقاً للبيئة الأمريكية والتجارب الأمريكية ، ومن أهم الكتابات التى خلفها : النشرة الأولى التى أصدرها فى عام ١٨٩٨ ، بعد أن أصبح رئيساً للاتحاد الصهيونى الأمريكى ، والتى تعتبر أول بيان رسمى عن أهداف الصهيونية الأمريكية وفلسفتها .

وأهم مفكر صهيونى أمريكى ظهر بعد جوتهايل إنما هو لويس براندايس (١٨٥٦ - ١٩٤١) الذى ماتزال هناك جامعة باسمه فى والتهام بولاية ماسا تشوستس .

وهناك شبه اتفاق على أن براندايس كان أبرز شخصية فى الحياة الأمريكية تتحول إلى اعتناق الصهيونية . وقد أمضى ٢٢ عاماً عضواً فى المحكمة العليا الأمريكية ، وإلى حين بلوغه سن ٥٤ سنة لم يكن له أى اتصال فعلى بالجالية اليهودية فى أمريكا ؛ فقد شب دون أن تكون له ديانة رسمية !

وفى عام ١٩١٠ استدعى إلى مدينة نيويورك للمساهمة فى الدفاع عن

عمال صناعة المنسوجات هناك ، وكان معظمهم من المهاجرين اليهود ، ولمس بنفسه أحوال الفقراء اليهود فى الحى الشرقى من نيويورك ، وأحس على الفور التعاطف معهم ! ثم التقى فى عام ١٩١٢ وجاكوب دى هاس رئيس تحرير صحيفة « بوسطن اليهودية » الأسبوعية والذى كان من أتباع هيرتسل القدامى ، وبعد هذا اللقاء انضم براندايس إلى اتحاد الصهيونيين الأمريكيين ، وأصبح عضواً نشيطاً فيه .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى تعثرت أعمال الحركة الصهيونية العالمية نظراً لأن المكتب الرئيسى للحركة فى ذلك الوقت كان فى برلين ؛ ومن ثم فقد تحولت مسئولية مساعدة الهجرة اليهودية لفلسطين ، وكذلك الحال فى المهام السياسية الرئيسية للصهيونية إلى يهود أمريكا ، وفى عام ١٩١٤ تشكلت لجنة تنفيذ مؤقتة داخل اتحاد الصهيونيين الأمريكيين ، اختير براندايس بالإجماع رئيساً لها ، وظل فى هذا المنصب حتى نهاية الحرب فى عام ١٩١٨ ، وكان خلال هذه السنوات الزعيم العقلى للصهيونية الأمريكية والموجه الرئيسى لحركة الصهيونية العالمية ، فقد وجه معظم جهده لمحاولة التوفيق بين اليهودى الأمريكى للحركة الصهيونية وولائه فى الوقت ذاته للولايات المتحدة ، وهى مشكلة الولاء المزدوج التى ما زال يعانى منها حتى الآن الكثيرون من يهود الولايات المتحدة وسائر دول العالم الأخرى !

ويرى البعض أن أهم عمل قام به براندايس فى هذا المجال هو

الخطاب الذى ألقاه فى عام ١٩١٥ فى مؤتمر لحاخامات حركة الإصلاح اليهودية ، وقد نشرها فيما بعد تحت عنوان « المشكلة اليهودية وكيف تحل » ؟ .

ويذهب البعض الآخر إلى أن أهم خدمة أداها براندايس للصهيونية خلال تلك السنوات كانت جهوده بعد أن أصبح عضواً للمحكمة العليا الأمريكية ، وأقام صداقة متينة مع الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون من أجل المساهمة فى إصدار وعد بلفور عام ١٩١٧ .

وقد اختلف بعد ذلك حاييم وايزمان ، وتطور الخلاف إلى قطيعة بينهما بعد الاجتماع الصهيونى الدولى الذى عقد فى لندن عام ١٩٢٠ ، وعاد على أثره إلى أمريكا لكى يواصل الحملة ضد وايزمان ولكن الحركة الصهيونية الأمريكية خذلته فى مؤتمر كليفلاند عام ١٩٢١ ، مما أدى إلى استقالته من عضويتها ، ثم اتجه بعد ذلك إلى مشروعات توطين المهاجرين اليهود فى فلسطين ، وتقديم المعونات الاقتصادية لهم . وكذلك تمويل مشروعات توطين المهاجرين اليهود فى فلسطين .

ومن الشخصيات الصهيونية الأمريكية التى تنتمى إلى هذه المرحلة — سولومون شحتر الذى ولد فى رومانيا عام ١٨٤٧ ، ثم جاء إلى أمريكا عام ١٩٠٢ حيث أمضى هناك ١٤ سنة قبل أن يموت فى نيويورك عام ١٩١٥ ، وكان له تأثير ضخم على عدد من الشبان اليهود الذين تشربوا منه الصهيونية .

ويهمنا فى المقام الأول أن نعرف أن شحتر جاء إلى مصر فى بداية عام ١٨٩٦ ، وخرج منها بآلاف من المخطوطات القديمة التى كانت مخبأة فى « الجنيزة »[١] الخاصة بمعبد عزرا فى مصر القديمة ، وأن هذا الكشف كانت له فى ذلك الوقت أهمية لدارسى الديانة اليهودية تعادل أهمية المخطوطات التى عثر عليها أخيراً فى منطقة البحر الميت ، لذلك فإنه يمكن القول بأن شحتر ينتمى إلى تاريخ الديانة اليهودية ودراساتها أكثر مما ينتمى إلى الصهيونية .

---

(١) كلمة « جنيزة » فى اللغة العبرية تعنى « مخبأ » .

الصهيونية فى نطاق التنفيذ

المرحلة العاشرة :

تضم هذه المرحلة خمسة من المفكرين الصهيونيين الذين ساهموا بدور مباشر فى تنفيذ الصهيونية عملياً بإقامة دولة يهودية فى فلسطين ، وأهم هؤلاء الخمسة وأقربهم إلى ذاكرتنا هما : دافيد بِنْ جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل وحاييم وايزمان أول « رئيس دولة » لإسرائيل . كما تضم أيضاً الحاخام « ماير برلين » الذى أسمى نفسه فيما بعد « ماير بارايلان » لأن هذه التسمية الأخيرة تتمشى مع اللغة العبرية ، كذلك تنتمى إلى هذه المرحلة أغرب شخصية فى تاريخ الصهيونية بعد هيرتسل . هذه الشخصية هى فلاديمير جابوتينسكى (١٨٨٠ – ١٩٤٠) . فبرغم أنه مات منذ ثمان وثلاثين سنة فإنه لايزال حتى الآن أكبر شخصية متناقضة بين الشخصيات الصهيونية ، فأنصاره من الصهيونيين كانوا يحبونه إلى درجة العبادة ومعارضوه – من الصهيونيين أيضاً – كانوا يكرهونه أشد الكراهية ، ويطلقون عليه اسم « موسولينى اليهود » وقد شارك قوات الجنرال اللنبى فى حملة فلسطين عام ١٩١٨ كجندى « نفر » جنباً إلى جنب مع بِنْ جوريون ، ورقى بعد ذلك إلى رتبة ملازم .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى انضم إلى العصابات الإرهابية اليهودية ، وعندما قامت الثورات العربية فى عام ١٩٢٠ اتجه إلى تنظيم فيلق يهودى فى القدس بحجة الدفاع الذاتى عن يهود فلسطين ، وبلغ نشاطه فى الإرهاب حدَّ أنَّ السلطات العسكرية البريطانية اعتقلته ، وحكمت عليه بالسجن لمدة ١٥ عاماً بتهمة إحراز أسلحة بطرق غير مشروعة ، ولكن هذه السلطات لم تلبث أن عفت عنه ، وأسقطت الدعوى ضده ، ومن بعدها أصبح من أشهر الزعماء الصهيونيين فى فلسطين .

وفى عام ١٩٢١ اختير عضواً فى اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية ، وعلى الفور بدأ الخلاف بينه وبين حاييم وايزمان الذى كان لايزال يرى أن الصهيونية لا تستطيع إنجاز أى شىء بدون موافقة بريطانيا فى حين كان جابوتينسكى يدعو إلى القطيعة مع بريطانيا والاعتماد على العصابات اليهودية الإرهابية . وبعد عامين من الخلاف استقال جابوتينسكى ، واتهم وايزمان وأنصاره بأن سياستهم ستؤدى إلى ضياع فلسطين من أيدى الصهيونية .

وعاد جابوتينسكى إلى النشاط الصهيونى فى عام ١٩٢٥ عندما نظم حزباً صهيونياً جديداً أسماه حزب « المصححين » وبعد حقبة كاملة من العلاقات الجافة مع الزعامة الرسمية للمنظمة الصهيونية قرر هو وأنصاره ترك هذه المنظمة نهائياً وأسسوا « المنظمة الصهيونية الجديدة » .

وهذه المنظمة الجديدة هى التى نظمت عمليات الهجرة غير المشروعة لليهود إلى فلسطين خلال الثلاثينيات كما أشرفت على نشاط عصابات « إيرجون » الإرهابية منذ ذلك الوقت حتى إعلان قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ ، وقد تم ذلك كله بتأثير وإرشاد جابوتينسكى .

وقد مات جابوتينسكى خلال رحلة له إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٠ .

ويبدو أن جابوتينسكى لم يترك كتابات كثيرة فالأثر الوحيد الباقى له هو الشهادة التى أدلى بها أمام اللجنة الملكية البريطانية أو « لجنة بيل » التى جاءت إلى فلسطين عام ١٩٣٧ (بعد الثورة العربية الكبرى التى قامت فى فلسطين فى العام السابق) لوضع توصياتها بخصوص كيفية وضع خطة لتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية .

ونأتى بعد ذلك إلى حاييم وايزمان (١٨٧٤ - ١٩٥٢) ، حيث يقول كتاب الفكرة الصهيونية فى أول سطر من الكتابة عنه :

« إن وضع نبذة مختصرة عن حياة وايزمان أمر غير ممكن ؛ لأن حياته هى نقطة التحول الرئيسة فى التاريخ اليهودى فى النصف الأول للقرن العشرين ، « ولذلك فإن الكتاب يقتصر على ذكر التواريخ والأزمان تاركاً التفاصيل التى يمكن الرجوع إليها فى مذكرات وايزمان التى كتبها تحت عنوان » المحاولة والخطأ (وقد صدرت فى نيويورك عام ١٩٤٩) .

وكمعظم الزعماء الصهيونيين ولد وايزمان ونشأ فى روسيا ، وبعد أن

أتم تعليمه الثانوى سافر حيث درس فى المعهد التكنولوجى فى برلين ، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة جنيف عام ١٩٠٠ واشتغل بعد ذلك بتدريس الكيمياء مدة السنوات الأربع التالية .

وفى عام ١٩٠٤ قرر الانتقال إلى إنجلترا حيث عمل فى جامعة مانشستر حتى عام ١٩١٦ ، وعندئذ – وفى منتصف الحرب العالمية الثانية – انتقل إلى لندن لكى يدير معملاً خاصاً أنشأته الحكومة البريطانية ، ولكى يواصل أبحاثه الهامة من أجل إنتاج الأسيتون وهو عنصر هام فى إنتاج البارود الذى تستخدمه القطع البحرية ، وظل يواصل هذه الأبحاث إلى ما بعد نهاية الحرب حيث ارتبط تماماً بالحركة الصهيونية .

بين الديانة اليهودية والدعوة الصهيونية

بعد هذا العرض للمراحل العشر لتطور الفكرة الصهيونية على أيدى عشرات من الكتاب والمفكرين والساسة – نعود إلى مناقشة آرائهم التى قد تبدو أكثر وضوحاً على ضوء هذا العرض السابق :

إن أول ما يسترعى النظر هو الفارق الواضح بين الديانة اليهودية والدعوة الصهيونية :

فالديانة اليهودية ترى أن تشتيت اليهود فى جميع أرجاء العالم بعد السبى الرومانى عام ٧٠ ميلادية إنما هو فترة عقاب وتكفير عن الذنوب !

والصهيونية ترى أن كل تاريخ ما بعد السبى – من الشتات والنفى – إنما هو حلقة متصلة من الصراع البائس ضد العداء للسامية ! وإنه بدون الجلاء التام لليهود عن مختلف دول العالم و « العودة » إلى « أرض إسرائيل » فلن يكون تاريخ اليهود غير استمرار لهذا الصراع البائس ضد « العداء للسامية » !

والديانة اليهودية تفسر « الخلاص » بأنه مواجهة بين اليهودى وربه ، أما الصهيونية – فى فترات ما قبل قيام إسرائيل – فإنها تفسر « الخلاص » بأنه الحوار بين اليهود وسائر الأمم ، وهو الحوار الذى يستهدف الحصول من

دول العالم على موافقة بإقامة دولة لليهود فى فلسطين !

والصهيونية – كدعوة حديثة – تستمد القيم الخاصة بها من الوسط العام للبشرية خلال الفترة التى ظهرت فيها ، وهى فترة نهوض القوميات الأوربية ؛ فهى مستوحاة من ظاهرة اجتماعية ، وليس من تعاليم دينية ! وتبعاً لذلك فقد أعطت الصهيونية الأفكار الدينية تفسيرات دنيوية : ففكرة « ظهور مسيح جديد لتخليص اليهود من الشتات » – قد فسرتها الصهيونية بأنها « حلم الوصول إلى عصر التحرر الفردى والحرية القومية والعدالة الاجتماعية والاقتصادية » . وقال بعض المفكرين إن هذا الحلم أو هذا العصر قد تحقق بالفعل فى أواخر القرن التاسع عشر (بانعقاد المؤتمر الصهيونى الأول) ! وقال بعض آخر : إنه تحقق بمجىء الانتداب البريطانى على فلسطين !

ويقول هيرتسبرج : إن الفصل الحديث فى تاريخ اليهود يبدأ بالثورة الفرنسية التى منحت يهود فرنسا حقوق المواطن الكاملة فى عام ١٧٩١ . وعندما دعا نابليون بونابرت إلى اجتماع « سانهدرين » (مجلس شورى يهودى) فى باريس وكان يضم ممثلين عن يهود فرنسا وإيطاليا – وجه لهم سؤالاً مباشراً : هل يصبح اليهودى – بعد تحرره – مخلصاً فى ولائه للدولة التى ينتسب إليها بلا أى تحفظات ؟

وكانت إجابة اليهود : « من ناحية الولاء السياسى ، نعم ! »

وكان ذلك قبل أكثر من مائة سنة من قضية دريفوس الشهيرة .

كذلك يرى هيرتسبرج أن الديانة اليهودية ديانة عالمية ، ولكنها قدر طائفة معينة هى طائفة اليهود ! غير أن اليهود من أبناء عصرنا الحالى قد اختلفوا ويهود العصور الخوالى : لا بحكم اختلاف الزمن فحسب ، وإنما أيضاً لأن هناك يهوداً كثيرين تحولوا إلى ديانات أخرى فى الأزمان السالفة ! بل إن الدراسات والأبحاث اليهودية تشير إلى أن قبيلتين كاملتين من أبناء سيدنا يعقوب قد اختفتا تماماً ، ولم يمكن تتبع نسلهما !

ومن جهة أخرى فإن عدداً كبيراً من اليهود الحاليين — ولا سيما اليهود الزنوج فى الولايات المتحدة وليبيريا واليهود الملونون فى الهند — دخلوا إلى الديانة اليهودية فى عصور مختلفة فى حين كانت لهم فى الأصل ديانات أخرى .

وكان على الصهيونية أن تعبر عن نفسها فى كلمات ترضى رجال الدين التقليديين وفى الوقت نفسه تجتذب أنصاراً من اليهود غير المتدينين ! وأيضاً أنصاراً من غير اليهود .

وفى سبيل البحث عن إقامة « مملكة » يهودية فى هذا العالم فإنه أصبح محتماً على الصهيونية أن تتجه إلى حملة مفاتيح هذه « المملكة » : الحكومات الأخرى !

ولقد طرح تحويل فكرة « ظهور مسيح جديد » إلى فكرة علمانية لا دينية — طرح بدوره فكرة أساساً أخرى فى الديانة اليهودية هى فكرة « الشعب المختار » :

فالديانة اليهودية تقول : إن اليهود قد اختارهم الرب لكى يقودوا العالم إلى الحياة الفضلى !

والصهيونية تقول : إن هذا الاختيار جاء بفضل « العبقرية القومية الفريدة لليهود ! »

وإذا كانت مهمة اليهود خلال فترة المنفى هى إرشاد العالم إلى حياة أفضل – فماذا تكون مهمة اليهود بعد انتهاء فترة المنفى وإقامة « دولة » يهودية ؟ تحاول الصهيونية الإجابة عن هذا السؤال عن طريق الزعم بأن اليهود سيظلون إلى الأبد شعباً مختاراً لهداية بقية شعوب العالم الأخرى ! وأن دولة إسرائيل ستكون القدوة والمثل الأعلى لسائر دول العالم الأخرى !

وإذا كانت « معجزة الخلاص والعودة » تعنى إعادة اليهود إلى الحياة الطبيعية فى العالم ، فما المصير الفريد الذى يبقى لهم ؟ وإذا كانت « آخر الأيام » ستحقق لليهود حياة آمنة ونصيباً عادلاً فى المجتمع الحر – فما الذى سيسبغ عليهم بعد ذلك صفة « الشعب المختار » ؟

يجيب موسى هيس عن ذلك بالإشارة إلى الدور « التقدمى الحديث » الذى قدر لليهود وحدهم القيام به لتشكيل عالم الغد ! وإلى أن الأمة اليهودية الجديدة ستكون بمثابة « الحارس » و « المعلم » بالنسبة لشعوب الشرق « الناعسة الغافلة ! » وستقوم بمهمة حضارية هى نقل روح الغرب إلى الشرق أو توسيع نطاق الغرب لكى يشمل الشرق ، أو تحويل هذا الشرق إلى جزء من الغرب !

وهذا المفهوم قريب جدًّا من حلم هيرتسل بإقامة « سويسرا يهودية » فى الشرق تكون نموذجاً لليبرالية الغربية !

والنظرية نفسها نادى بها بِن يهودا وهو يعمل على تحويل اللغة العبرية من لغة كلاسيكية أو لغة دينية جامدة إلى لغة حديثة حية ، وكذلك بوروخوف الذى كانت الصهيونية بالنسبة له بناء دولة جديدة كمرحلة ضرورية سابقة لخلق قطاع يهودى من الصراع الطبقى العالمى ، ولكى يشهد العالم حلبة جديدة لهذا الصراع ، ولكى يرى كيف يكون الصراع الطبقى بين اليهود بعضهم وبعض ؟ وكيف تكون الحلول التى يضعونها لهذا الصراع ؟

وعلى نقيض ذلك نجد أحد هَعَام يقول : ليس يكفى أن يكون هدف الصهيونية مجرد إقامة دولة ! » وإنما يجب التركيز أولاً على خلق مركز إشعاع للثقافة اليهودية فى فلسطين ؛ حتى تصبح عملية إقامة مجتمع يهودى فى فلسطين مقبولة من جانب جميع البشر ؛ ومن ثم تصبح إقامة إسرائيل حدثاً أهم من مجرد قيام دولة جديدة فى هذا العالم !

ذلك أن أحد هَعَام كان يرى أن « نهاية الأيام » هو العصر الذى تُؤتى فيه القيم اليهودية ثمارها كاملة داخل مجتمع قومى يهودى فوق أرض إسرائيل القديمة !

إن أحد هَعَام كان أول مفكر صهيونى يعلن أن مثل هذه الدولة اليهودية — التى كان هيرتسل يحلم بها — لا يمكن أن تعيش فى ظروف طبيعية ! فبعد المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧ قال : « إنه حتى مع

تجميع كل اليهود فى فلسطين - فلن يكون هناك حل للمشكلة اليهودية ! ، فإن قيام كيان سياسى ليس له جذور ثابتة فى الثقافة القومية لليهود سيكون حرياً بأن يصرفنا عن الولاء لروح اليهودية ، ويدفعنا إلى الميل للبحث عن طريق المجد فى الوصول إلى القوة المادية والسيطرة السياسية ؛ وبذلك نقطع الخيط الذى يوحدنا مع الماضى ونزعزع الأساس الذى نبنى عليه تاريخنا !

هذا فى حين رأى جوردون أن اليهودية مسلك « خاص » لليهودى ، حيث قال :

« كن يهودياً فى بيتك ، ورجلاً عادياً فى الخارج ! »

وأوضح بنسكر ثلاثة أسباب للعداء للسامية هى :

- إن اليهود شعب من الأشباح ، وهم فى ذلك لا يشبهون أى شعب آخر فى العالم من حيث انعزالهم من الحياة الاجتماعية .
- إن اليهود غرباء فى كل مكان ، وليسوا ، « أصحاب دار ! » .
- إن اليهود فى حالة منافسة اقتصادية مع كل أغلبية يعيشون بينها .

لذلك فقد رأى أن الحل العملى الوحيد هو أن ينظم اليهود كل طاقاتهم ، ويعملوا على الحصول على كل مساعدة ممكنة من العالم أيا كانت فى سبيل الحصول على وطن خاص بهم » « وإذا أمكن - فليكن وطن الأجداد فى الأرض المقدسة ؛ وبذلك تستريح أيضاً الأغلبيات المختلفة من مشكلة اليهود فى النهاية ! » .

وقد وصل هيرتسل فى الحقبة التالية إلى التحليل نفسه ، وصل إليه مستقلاً ؛ لأنه لم يكن يعرف وجود كتاب بنسكر « الانعتاق الذاتى » عندما وضع نظرية « الدولة اليهودية » وقد ذكر فى يومياته — وفى مناسبات عامة متعددة — أنه ما كان ليكتب « الدولة اليهودية » لو كان عرف ما كتبه بنسكر ! .

قال هيرتسل : إن العداء للسامية يقلق السلم والاستقرار العام فى أوربا ؛ لذلك فواجب اليهود أن يُقنعوا الأمم الأخرى بأن تشترى أمنها عن طريق التسليم بمطالب الصهيونية ؛ ومن ثم فإنه يجب على الصهيونية أن تبرز كل ما هو معقول وحديث بالنسبة للعالم .

لقد بلغت الصهيونية ذروة نجاحها بإقامة إسرائيل ، وربما تكون إسرائيل أيضاً قد بلغت ذروة نجاحها فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ عندما تمكنت من احتلال أراضى ثلاث دول عربية أخرى ، ثم فى ١٤ مارس من سنة ١٩٧٨ عندما احتلت القوات الإسرائيلية قطاعاً من أراضى دولة عربية رابعة هى لبنان !

ولقد كان رد الفعل لذلك هو تحول القيم الجديدة فى عالم اليوم — ولا سيما فى العالم الثالث — إلى وجهة جديدة هى العَداء الفكرى للصهيونية ! وقد تمثل ذلك بوضوح فى القرار الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١١ من نوفمبر عام ١٩٧٥ باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية التى حاربها ، ومازال يحاربها العالم كله !

الكتاب القادم

بدر وفتح – قمة المعارك الإسلامية

محمد فرج

رقم الإيداع	١٩٧٨/٣٤٧٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٣٢١ – ٦

١٠١/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هـذا الكتاب

إن أول دعوة لإقامة مستوطنات يهودية فى فلسطين بالمفهوم الحالى لفكرة المستوطنات — يرجع تاريخها إلى ما قبل ١٤٤ عاما . .

قصة المستوطنات اليهودية وأصولها فى الفكر الصهيونى يعرضها هذا الكتاب من خلال دراسة شائقة تعتمد على التوثيق العلمى . وتلقى الضوء على هذه المشكلة التى جعلتها إسرائيل حجر عثرة فى سبيل السلام .

١٠ ج

بسم الله الرحمن الرحيم

قام بإعداد هذه النسخة pdf ورفعها :

د محمد أحمد محمد عاصم

نسألكم الدعاء